ميثـــاق علمـــاء تــونـس

الحمد للّه الذي أعزّنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بسيّدنا ومولانا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فهدانا به من الضّلالة، وجمعنا به من الشّتات، وألّف ببركته بين قلوبنا، فأصبحنا إخوة متحابّين في اللّه.

وأفضل وأتمّ الصّلاة والسّلام، على سيدنا ومولانا محمّد سيّد الأنام، وعلى آله الكرام، وأصحابه العظام، وورّاثه الفخام، ما تعاقبت اللّيالي والأيّام.

أمّا بعد، فنحن علماء الزّيتونة وأتباعهم وتلاميذهم ومن كان على منهجهم، ونظرا لما بدأت تشهده بلادنا من حملات تشويه وتغيير للهويّة، ومحاولات لفصل التونسيّ عن ماضيه وأمجاده وهويّته الأصيلة وعقيدته السّمحة، فإنّنا ندعو لهذه الوثيقة ونقرّ ونبيّن ما يلي:

﴿ البند الأوّل ﴾

التّونسيون أهل اتّباع لا ابتداع منذ الفتح الإسلاميّ

إنّ تونس وأهلها كانت ولا تزال وستبقى بعناية الله منذ الفتح الإسلاميّ، رائدة في الاتّباع والانضواء تحت راية جماعة المسلمين، متحقّقة في ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾، ومنتهية عن الخروج عن جماعة المسلمين، المنهيّ عنه في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾؛ وهي بموافقتها لما انتهجه السّواد الأعظم من الأمّة، تعصم نفسها من الانزلاق في متاهة الزّيغ عن سبيل الهدى، منتهجة ما كان عليه الحبيب المصطفى

ﷺ القائل: ﴿لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ﴾ أخرجه الشّيخان.

﴿ البند الثّاني ﴾

عقيدة علماء الزّيتونة

إنّ أهم وأوّل واجب على المسلم، هو معرفة العقيدة التي هي أساس توحيد صفّ المسلمين وجمع كلمتهم، والتي جنى التّونسيّون ومنذ القديم ثمار صحّتها ووحدتها؛ وذلك بفضل جامع الزّيتونة المعمور، الذي زرع في أهلها أطهر وأنقى وأصفى بذورها، إذ كان في هذا الجانب غير خارق لإجماع الأمّة، يدين اللّه بعقيدة أهل السّنّة والجماعة، والمراد بها ومنذ القديم عند إطلاقها: عقيدة الأشاعرة والماتريديّة، شأنه في ذلك شأن جامع الأزهر في مصر، وجامع القرويّين في المغرب، وسائر منارات العلم الدينيّ في العالم الإسلاميّ.

ولمزيد من البيان نقول: إنّ علماء الزّيتونة والقيروان في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، كانوا في عقيدتهم على مذهب السّلف من الصّحابة والتّابعين، وهو مذهب "الإثبات والتّفويض"، أي إثبات صفات اللّه تعالى مع نفي التّشبيه والتّجسيم والتّعطيل، وتفويض حقيقة معانيها المرادة إلى اللّه تعالى.

ثم في أواخر القرن الرّابع الهجريّ تلقّى بالقبول اقتناعا علماء الزّيتونة والقيروان المذهب الأشعريّ في التوحيد، وذلك لما وجدوا فيه من دفاع عن عقيدة المسلمين، ومن تحصين لها ضدّ العقائد الفاسدة والشُّبهات التي أثارتها بعض الفرق المنتسبة للإسلام آنذاك. وهذا المذهب يعتبر استمرارا لمنهج السّلف في تقرير العقائد والاستدلال عليها بالأدلّة النّقليّة، لكنهم اضطروا إلى إضافة الأدلّة العقليّة التي احتاجها ويحتاجها المسلمون في كل زمان للرّدّ على المبتدعة وأصحاب الأهواء وغير المسلمين ومن شاكلهم.

والمذهب الأشعريّ هو مذهب الإثبات والتّأويل، أي إثبات صفات اللّه تعالى في كل ما ورد من نصوص الكتاب والسّنّة، وتأويل الذي لا بدّ منه في تنزيه اللّه سبحانه وتعالى في خصوص الألفاظ المتشابهة، بمعان تليق باللّه تعالى، وبحسب ما تسمح به قواعد استعمال الكلام العربيّ البليغ من مجاز واستعارة وغيرها، مع الإقرار بالتّفويض.

﴿ البند الثّالث ﴾

المعتمد في الفقه عند علماء الزّيتونة

إنّ المذهب المعتمد في الفقه عند أهل تونس هو المذهب المالكيّ، بترجيحات واجتهادات علماء المغرب عموما، وعلماء تونس وجامع الزّيتونة خصوصا، مع مراعاة الاختلاف التّكامليّ المعتبر مع بقيّة المذاهب السّنّية (الشّافعية والحنفيّة والحنبليّة).

والمذهب المالكي، نسبة للإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة في وقته، الذي بشّر بظهوره الرّسول الأكرم ﷺ حين قال: ﴿ يوشك أن يَضرب النّاس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة ﴾ أخرجه الحاكم وابن حبّان وأحمد والتّرمذي. وأجمع العلماء على أنّه الإمام مالك، وقال فيه تلميذُه الإمام الشّافعيّ: ﴿ إذا ذكر العلماء فمالك النّجم ﴾.

ولقد اتّبع أهل إفريقيَّة المذهب المالكيّ تفقّها واجتهادا وقضاء، ومعلوم أنّ القاضي والفقيه العلّامة الإمام سحنون، هو جامع مذهب مالك في مدوّنته، وإنّ علماء إفريقيَّة منذ أبي العرب التميميّ، وعليّ بن زياد، وأسد بن الفرات، إلى ابن عرفة، وصولا إلى سالم بوحاجب والخضر حسين ومحمد الزغواني والطّاهر بن عاشور وكلّ علماء الزّيتونة كافّة، كانوا على مذهب الإمام مالك فبيّنوه للنّاس وأَثْرَوه.

ولقد حرص علماء الزّيتونة على وحدة المذهب الفقهيّ المالكيّ، مع الاستئناس بالمذهب الحنفيّ، لوجود بعض فقهائه ومتّبعيه من أصل تركيّ في إفريقيّة، ولطالما كانت

وحدة العقيدة والمذهب الفقهيّ عنصر قوّة ومناعة لتونس ضدّ الفتن العقائديّة والطّائفيّة.

﴿ البند الرّابع ﴾

المنهج المعتمد في التّزكية عند علماء الزّيتونة

إنّ علم التّزكية هو الرّكن الثّالث من الدّين، وعليه مدار تزكية النّفس والأدب مع اللّه والسّلوك إلى رضوانه. ومرجع علماء تونس في هذا العلم هو طريقة الإمامِ أبي القاسم الجنيد، إمام القوم في مقام الإحسان، وعلم التّزكية والسّلوك.

ولقد أحسن وأجاد الإمام العلامة ابن عاشر حيث جمع أقسام الدين الثلاثة هذه في منظومته، فكان أبناء تونس يَحفظونها منذ نعومة أظفارهم فيُحفظون بما فيها من منهج قويم إذ قال:

في عقد الأشعري وفقه مالك   وفي طريقة الجنيد السالك

﴿ البند الخامس ﴾

علماء الزّيتونة هم مرجعيّة أهل تونس

لقد كان لتونس علماؤها وأعلامها الرّاسخون في العلم، الذين شهد لهم القاصي والدَّاني من العلماء العارفين المحقّقين: بسعة الاطّلاع، والتّبحّر في العلوم: منقولها ومعقولها، مع نبذ الابتداع، وملازمة الجماعة، والاتّباع لأئمّة سلف هذه الأمّة، المشهود لهم بالرّئاسة في العلم والتّقى، والنّهج على ما كان عليه الحبيب المصطفى ﷺ.

وإن جميع التّونسيّين كانوا ولا يزالون مُقرّين ومجمعين على أنّ علماء الزّيتونة هم مرجعيّتنا العلميّة المثلى، بل هم مرجعيّة لأهل العلم في سائر الأقطار، وأشعّوا بنور علمهم على أهل المغرب خاصّة، وعلى المسلمين حيثما كانوا عامّة، ويدلّ على ذلك تآليفهم التي اعتمدت وتُلقّيت بالقبول في سائر الأقطار الإسلاميّة.

وإنّ ما شهدته تونس من حملات تغريب، خلال العقود الخمسة الماضية، وما كان فيها من تجفيف للمنابع، جعل البعض يجهل أو ينسى أو يتناسى قيمة الزّيتونة وعلمائها، وحقيقة المرجعيّة الدينيّة لأهل تونس، ألا وهي العقيدة الأشعريّة والمذهب المالكيّ والسّلوك على طريقة الجنيد؛ وأنّ كلّ ذلك إنّما كان بسند متّصل، وحبل موصول، أخذه أسياد العلم ومشائخه وأقطابه كابرا عن كابر وخلفا عن سلف، ودلّت على ذلك كتبهم ومناقبهم وشهد بذلك التّاريخ.

وعليه فإنّنا اليوم، إذ نخطّ هذا الميثاق، نقرّ بما فيه من مكوّنات هويّتنا العريقة، من عقيدة وفقه وفكر دينيّ وسلوك وتزكية، وهي هويّة خاصّة بأهل تونس، لأنّ المعلوم أنّ كلّ مصر وبلد لديه هويّة خاصّة تتماشى مع عرفه من جانب، ومع ما سخّر اللّه سبحانه وتعالى فيه من أهل العلم وما سلكوه للناس من مناهج ومعارف ومن مذهب وأحكام من جانب آخر، فليس في هذا مساس بكون الإسلام هو دين كونيّ ولا أنّ فيه تشرذما أو تفرقة، ولكنه تقسيم منهجيّ واقعيّ حقيقيّ. ومن أجل ذلك جاز القول أنّ هؤلاء على مذهب الشّافعيّة في ذاك البلد، وأنّ الآخرين في قطر آخر على مذهب المالكيّة أو الحنفيّة أو الحنبليّة، مع ما يكون من تقاطعات واستئناسات، لأن الاختلاف تكامليّ، فيه تيسير ورحمة من المشرّع بالمكلّفين، وليس تصادميّا، وتبقى العقيدة واحدة لدى الغالبيّة العظمى من أهل الإسلام وهي الأشعريّة والماتريدية. فقد قال رسول اللّه ﷺ: ﴿..وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ﴾ أخرجه التّرمذيّ وابن أبي شيبة بسند صحيح.

ونحن إذ نقرّ بهذا ونوقّع على هذه الوثيقة، ندعو كلّ أهل تونس إلى الوعي، والالتزام، ونبذ التّشرذم والصّدام، والأخذ من أهل السّند المتّصل على المنهج الزّيتونيّ الحقيقيّ، من منهله الصّافي، ونبعه النّقيّ، وأنّه لا يحقّ لأحد أن يبدّل ذلك بأيّ حجّة كانت، أو يحرّفه، أو

يأتي بما يناقضه، أو يسفّهه، لأنّه بذلك خالف إجماع علماء البلاد منذ أن أنارها اللّه بنور الإسلام، وإلى أن يرث الأرض رب الأنام.

تـمّ الإقـرار والتّـوقيع عليـه من طـرف الشيخ:

ملاحظاته وتقريظه:
توقيعه وختمه: